فلسطينيات :

أولجـــا رومانوف

الأستاذ نجاتي صـــدقي

يعرفها الناس باسم « السيدة المسكوبية » ، وهي تجيد خمس لغات أوربية ، كما أنها تتحدث قليلا بالعربية العامية ، ويعجبها أن تعرب عن أفكارها أحياناً باللفظ العربي الفصيح فتقول مثلا: « يغلب على ظني أن الأمر كذا وكذا » و « ثق يا عزيزي بأنني متمسكة برأيي » ، و « أجل » ، و « ربما » ...

والسيدة المسكوبية هذه تقع في حدود الخمسين من عمرها ، قصيرة القامة ، نحيفة الجسم ، عظيمة الهيئة ، مجعدة الوجه ، غائرة العينين ، مصفرة الأسنان ، وبعضها قد نخره السوس ، لكنها تحتفظ بشعر أشقر طويل تضفره وتعقده حول رأسها ، وهي تحاول دائماً أن تكون ضحوكا لعوباً ، ميالة إلى تقليد الفتيات اليافعات الطارقات حديثاً أبواب الحياة ...

وتسكن هـذه السيدة في دير الأرز الواقع بين منعطفات المرحلة الثالثة من طريق الآلام في مدينة القدس القديمة ... وغرفتها على قدرها ، طولها أربعة أمتار ، وعرضها متران ، ويتألف أثاثها من سرير مفرد ، يستند إلى قوائم أربع ، إلا أن فراشه يُقبل الأرض ! وخزانة ضيقة عتيقة عرجاء ، تقف في الزاوية كما يقف المسكين مستعطياً ... ومائدة صغيرة تستعمل لكل شيء : للطبخ والأكل والزينة ، فقدت سوداء براقة لاختلاط دهانها بالزيوت التي تنساب عليها من الصحائف واللاعق ، وبساطاً «موزاييكا» حيك من مختلف الشرط البالية ، وصورة علقت على الحائط تمثل « الخضر » راكباً على فرسه وهو يلقم التنين رأس حربته ... وألبسة وقبعات نشرت على مشجب خشبي ... أما باب الغرفة ، فقد دقت فيه من الداخل مسامير صغيرة تستعمل لتعليق بعض المناشف وأوائل منزلية أخرى ... وألصقت عليه من الخارج رقعة كتب عليها : « أولجا نيقولا يفنا رومانوفا »

وتدعي السيدة المسكوبية بأنها منحدرة من آل رومانوف قياصرة الروسيا ، وأن « الدهر الخؤون » طوّح بها إلى بلاد العرب ، وأنها فقدت زوجها ، ولم تنجب منه أولاداً ؛ فتفرغت للعبادة والخدمة في الصليب الأحمر ، وهي تعتقد أن لها « صلات قدسية » مع بعض القديسين ، وبوسعها أن تكون وسيطة فيما بينهم وبين قاصديهم من طلاب الحاجات .

وللسيدة المسكوبية جيران يشفقون عليها فيمدونها بين حين وآخر بما تيسر من حواضر البيت ، وتغتنم هي الفرص في كثير من الأحايين فتقف عنـد باب غرفة جارها وتناديه ، فإن كان داخلها ورد عليها سألته :

— هل لي أن أعرف الوقت الآن ؟

وإن كان خارجها دفعت الباب صارخة :

— ما بك يا جاري ... عساك بخير ؟ فإن لم تجد في الغرفة أحداً تناولت شيئاً ، وانسحبت على عجل !

وفي أحد أيام شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ حلّ في الدير ضابط بولوني اسمه «يوزيك غروزني» سرح من الجيش لعـدم صلاحيته للخدمة العسكرية ، واستأجر غرفة في الطابق الأسفل من الدير ، وكان متاعه ما جلبه معه من الجيش من سرير عسكري وأحرمة وألبسة وأدوات أكل ...

وهنا تبدأ القصة :

فبينما كان يوزيك مستلقياً على سريره ذات مساء ، يستعرض بحرقة وألم الأيام العصيبة التي مرت به منذ أن فر من بولونيا ، حتى اشتراكه في معارك ليبيا ووقوعه جريحاً ، وإحالته إلى هذا الدير عاطلا ، إذ به يلمح امرأة تقف عند نافذة غرفته وهي تبسم له وتقول بالبولونية :

— حضرتك جارنا الجديد ؟

— نعم !

— أأنت جندي ؟

— أجل ، وسرحت لعطل في ساقي

— ومن أية بلدة بولونية أنت ؟

— من لودز

— أحقاً أنت من لودز ؟ يا لغريب المصادفات ! إنني قضيت شطراً من شبابي في هذه المدينة الجميلة !

— وحضرتك ما اسمك ؟ ومن أين ؟

— أنا أولجا نيقولا يفنا رومانوفا ! (ورفعت رأسها إلى الملاء قليلا) إن الدم الأزرق يجرى فى عروق ، دم آل رومانوف !

فانتفض يوزيك فى سريره وانتصب واقفاً وهو يحدق النظر بـ «الأميرة» الشردة ، وكان ينتابه عاملان خفيان : عامل الكره للروس ، وعامل الحاجة إلى المونة . يود أن يصرخ فى وجه « سليلة » آل رومانوف ، ويسمعها قارص الكلام فى حق أبيها وعمها والحاشية القيصرية كلها ، لكنه أحس أنه أصبح من مساكين هذا الدير ، وهو فى مسيس الحاجة إلى من يساعده ويواسيه ، وعليه أن يكون سمحاً متواضعاً ، فخرج إلى حيث تقف السيدة المسكوبية ، وقرع قدمه اليمنى بقدمه اليسرى ، وحياها بإصبعيه التحية العسكرية البولونية ، ثم انحنى على يدها وطبع عليها قبلة رشيقة !

وتوالت الزيارات فيما بعد بين يوزيك وأولجا ، فكانت هى تدعوه إلى شرب الشاى عندها ، وكان هو يشترى لها بعض الهدايا من الماش الذى يتقاضاه من الوكالة البولونية . وهكذا توطدت أواصر الصداقة فيما بينهما ، وشعرا بالدفء إلى جانب بعضهما ... وفى ليلة كانا يتبادلان فيها أنخاب الفودكا ، فاتحها يوزيك بالزواج ، فأسبلت عينيها خجلا ونمتمت قائلة : « حقاً إنك لمفرط يا يوزيك ... أيتزوج عملاق لم يبلغ الأربعين من امرأة ضعيفة قد ناهزت الخمسين ؟ !

قال : ولم لا ؟ الحب ياسيدتى لايقر بحد للأعمار ، ولايعترف بالسمن أو الهزال ... الحب هو تبادل العاطفة المشبوبة بين نفسين متجانستين متفاهمتين ...

قالت : أتحبنى إذن ؟

قال : فلتشهد السماء على حبى لك ... ولتشرب نخب الحب والزواج ...

ولم تمض أيام على هذا الحديث حتى عرف كل من فى الدير أن أولجا أصبحت زوجة ليوزيك ، وأنهما سعيدان فى زواجهما هذا . ومن مظاهر هذه السعادة أنهما كانا دائماً منطويان على نفسيهما فى غرفة أولجا ، يشربان الشاى نهاراً ، والفودكا ليلا ، ويدخنان ويتماجنان ويقهقهان عالياً ، ويمربدان أحياناً بصورة تقلق راحة الجيران ، إلا أن هؤلاء كانوا يتسامحون مع العروسين الجديدين ، ويغضون الطرف عما يبديانه فى الدير من طيش ناشئ عن انفعالات النفس والعاطفة ...

وحدث فى منتصف الليلة الثانية من الشهر الثانى لزواج يوزيك بأولجا أن هبّ سكان الدير مذعورين على صراخ عنيف وقرع شديد على باب الممر المؤدى إلى الغرف ، وسمعوا أولجا تصرخ السباب والشتائم ليوزيك ، فتقول له : — اذهب أيها الكلب إلى غرفتك ... إننى آويتك وأحسنت إليك ... اذهب أيها المتشرد ... وكان يوزيك يجيبها : لقد سرقتنى يا فاعلة الشر وكذا ... والله لأبطشن بك ... واحتدم الجدل فيما بينهما وهو يوزيك باب الممر ، ثم اقتحم غرفة أولجا ولكمها على عينها لكمة قوية تركت حولها هالة زرقاء ، فاستنجدت بالجيران ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على التدخل ، فاستنجدت مرة أخرى بأهل الحى ، فجاءها الحراس واعتقلوا يوزيك ، واقتادوه إلى دار الشرطة حيث حرر الضابط المسئول محضراً ، وكانت أولجا هى المدعية والشاهدة ، فقالت فى إفادتها : « لقد حطم زوجى الأبواب وضربنى ، فانى أطلب له أقسى درجات العقوبة »

ولما عادت إلى بيتها وسكنت إلى نفسها أخذ ضميرها يؤنبها فراحت تبكى وتنتحب وتتساءل قائلة : — « رباه ؛ من الذى سبب لزوجى الاعتقال غيرى ؟ ... ومن الذى أسكره ، وسرقه وقاده إلى سطح الدير سواى ؟ » .

يبدو أن الإنسان مهما انحطت أخلاقه وفسدت ، وهو تدهور إلى مصاف الأسافل وتخبط فى حضيض الحياة ، يبقى حاملا فى نفسه القليل من الكرامة ، واليسير من المعنويات فتراه إذا ما هزته مساوئه يثوب إلى رشده ، ولو إلى حين فيذكر أنه لا زال ينتمى إلى بنى الانسان ، وأن ما يقوم به أعمال شريرة لأمر يناقض الأنظمة العامة التى اتفق عليها الناس ويخالف الطبيعة البشرية على الجملة .

وهكذا أحست أولجا بعامل خفى يدفعها لأن تسعف يوزيك فعادت للتوّ إلى دائرة الشرطة وقالت للضابط المسئول : — أريد إدخال بعض توضيحات فى إفادتى .

فقال — وما هى ؟ ...